

الافتتاحية

ظلمات الحداثة

أطلقت تسميات عدّة على التغيرات: الاجتماعية، والفكرية، والثقافية التي حصلت في الغرب الأوروبي منذ القرن الثامن عشر. من أبرز تلك التسميات ما عُرف بـ«عصر النهضة»، «وعصر الأنوار». والمقصود من تسميات مُماثلة أنّ ما سبّق تلك التغيرات كان مرحلة ظلمة وتخلّف قياساً إلى النور والتّقدم.

ما جرى فعلياً، منذ تلك المرحلة، كان بداية انقلاب وتغيير عميقٍ سيحتاج إلى قرن آخر قبل أن تتضح آثاره: الفكرية، والسلوكية، والاجتماعية، على حياة الناس ليس في الغرب وحده؛ بل خارج حدود ذلك الغرب بعد توسّعه الاستعماريّ إلى جغرافيات ثقافية واسعة.

لقد انخرط فلاسفة ومفكّرون وعلماء اجتماع في توصيف هذا العالم الجديد، وفي البحث عن احتياجاته ما بعد القطيعة مع الدين. أمّا الفكرة المركزية التي شغلت بال هؤلاء فكانت في كيفية الانتقالين: النظري، والعملي، من مركزية الإله في المنظور الديني، إلى مركزية الإنسان في المنظورين: «النّهضوي»، و«الإنساني» غير الدينيين.

سوف يُؤدِّي ذلك كلّه إلى تغيير عميق في معاني علاقة الإنسان مع نفسه، ومع الآخرين، ومع الطبيعة ودلالاتها. وستكون قاعدة ذلك التغيير الأساس في محورية الإنسان، هي:

- عدم الاعتقاد بكلّ ما هو خارج سيطرة الإنسان؛ أي كلّ ما هو غيبيّ، وما يتصلُّ به من أوامر، أو نواه.

- رفض كلّ ما هو وعود وتوقّعات خارج حياة الإنسان الرّاهنة والفعليّة؛ أي رفض وعود الدّين بما ينتظر الإنسان من حياةٍ بعد الموت، ومن ثوابٍ وعقابٍ «وما هي إلّا حياتنا الدّنيا».

- رفض أيّ مصدر للمعرفة من خارج ما يرتئيه العقل، وما يُقرّره، وما يراه صواباً بالنّسبة إلى الإنسان ورغباته ومصالحه، وعدّ التجربة الواقعيّة البشريّة أساس ما يُبتنى عليه من قوانين وتشريعات.

لم تكن تلك الأسس مُجرّد فرضيّات نظريّة، أو فلسفيّة؛ فقد تحوّلت إلى مناهج ومفاهيم في البحث والتّفكير حتّى في العلوم الإنسانيّة، وفي الدّراسات النّفسيّة والاجتماعيّة، بعدما كانت قد اقتصرّت في بداياتها على العلوم التّطبيقية. لقد تحوّلت التجربة في المُختبرات إلى مرجعيّة ما هو علميّ، وما هو غير علميّ. وباتت تلك التّجربة مقياس المعرفة الصّحيحة، وليس أيّ فرضيّة نظريّة، أو أيّ أطروحة إلهيّة، أو أيّ تشريعات دينيّة.

هكذا بات الإنسان فقط، وبمعزل عن أيّ مرجعيّة أخرى، هو الذي يُقرّر ما يُريد، وما لا يُريد. وما هو مُناسب له، وما هو غير مُناسب. لقد أصبح الإنسان هو مركز الكون، بعدما كان الله هو المركز، بعدما كانت التّشريعات الإلهيّة هي التي تُقرّر ما هو صحيح، وما هو غير صحيح، وما يُمكن فعله، وما لا يُمكن القيام به. ومن مرجعيّة الإنسان وما يريده، وما يرغب فيه، وما يعمل من أجل تحقيقه. اشتقت أيضاً تسمية «الإنسانيّات» «الهومانيسم» التي تريد أن تؤكد مركزية الإنسان وهيمنتها على الكون، وأولويّة ما يُريد على أيّ حسابات أخرى. وسيطلق الغرب على تلك التّغيرات العميقة في المفاهيم والدّلالات والسّلوكيّات «الحدّاث»، والتي ستعني:

- نهاية عصر الكنيسة، وأفول سلطتها: الزّمنيّة، والرّوحيّة.

- الإنسان وليس الله هو مركز الكون.

- التجربة هي مصدر المعرفة، وليس أي مصدر آخر.
- العقل هو الإله الذي يقود، والحرية هي صنو هذا العقل في التأليه، وفي الاختيار.

باتت الحداثة مرادفة لكل ما هو تقدم. وبات أي تقدم في مجالات العلم والتقنية والاكتشافات من ثمار تلك الحداثة، ومن ثمار ما يجري في المختبرات البحثية والعلمية. وحتى الدراسات في المجالات الإنسانية في الفلسفة، وعلم النفس، والتربية وسواها التحقت بمنطق المختبرات ومناهجها البحثية؛ لتحظى بمكانة «العلم» كما هو حال العلوم التطبيقية. لقد انقاد الإنسان الحديث، المعتمد كلياً على التجربة والعلم في حالة من الحيرة والدهشة، وأصبحت العلمية قدر العصر الجديد، وأي شيء لا يُختم بِختم العلم، والتجربة، والاختبار فسوف يُرفض دون أدنى تأمل.

منذ تلك اللحظة، بدأت أزمة العلوم الإنسانية، وأزمة الحداثة نفسها التي لم تتمكن من «اكتشاف» القوانين في فهم الإنسان، وفي توقع ما سيقوم به، وفي السيطرة على ما يدور في أعماق مشاعره وأحاسيسه، على غرار ما فعلت العلوم التطبيقية مع المادة الجامدة في المختبرات البحثية. وقد احتاجت تلك الدراسات الإنسانية إلى عقود إضافية قبل أن تكتشف طبيعة أزمتهما في استحالة تقليد العلوم التطبيقية في فهم الإنسان، مثلما اكتشفت أن حداثة الغرب لم تكن نموذجاً يُبني طموحات المجتمعات الغربية نفسها وتطلعاتها إلى السكينة، والأمن النفسي، والاستقرار الأسري والمجتمعي، خاصة وأن الحداثة قدّمت نفسها بديلاً من ممنوعات الدين، ومن تأجيل الرغبات، واختصرت معنى الوجود في السعادة الآنية، وليس في أي توقع آخر غيبي، أو ما بعد دنيوي لتلك السعادة.

مع فقدان القيم الثابتة في عصر النهضة، كما يقول هايدغر «ضعف أيضاً الاعتقاد بالله، وأصبح الأمر القدسي والمُتسامي بلا قيمة، واعتقد إنسان العصر الحديث أن الله أمرٌ وهمي، ويشكل له مانعاً من الاستفادة القصوى من الطبيعة. ولذلك، فقد أزاح الله من حياته جانباً».

لم تعمّر وعود الحداثة طويلاً؛ فلم تنقض بضعة عقود على ذلك التقدم العلمي، والاكتشافات المتطورة التي غيرت حياة الإنسان، حتى اندلعت الحروب الأوروبية العالمية: الأولى، والثانية اللتان حصدتا الملايين من القتلى، والجرحى، والمُعوقين،

والأيتام، والأرامل؛ ولتطيح بجميع وعود السعادة التي روجت لها الحداثة، بعدما أثقلت تلك الحروب المجتمعات الغربية بصعوبات، وأزمات نفسية، واجتماعية، وأخلاقية، واقتصادية لم تكن في حسابان «الأنموذج الحداثي» ووعوده بالعيش الرغيد، والسعادة الآمنة. لقد تصدع البنيان الذي شُيد للحضارة الغربية كونها ذروة ما بلغته البشرية من تقدم، ومن عقْلنة غير مسبوق، في تاريخ الشعوب والحضارات. لم يتجاوز الإنسان في المجتمعات الغربية صدمة الحربين العالميتين حتى حاصرته التكنولوجيا التي تطوّرت بسرعة قياسية منذ مطلع القرن العشرين. بات الإنسان أسيراً لذلك التطور الذي يتحكّم في كل تفاصيل حياته اليومية، والخدمات التي يُمكن أن يحصل عليها. لم يعد لدى الإنسان الوقت للتأمّل، أو للتواصل المباشر مع أقرانه وأصحابه. لقد التهمت آلة التكنولوجيا الصناعات الضخمة، وحوّلت وجوده إلى مُستهلك فقط، عليه أن يُنفق ما يجمعه على ما لا يحتاج إليه.

إنّ عصر التكنولوجيا هو عصرٌ يتصوّر الإنسان فيه أنه يعلم كل شيء، في حين أنه غارق في غفلة تامة؛ بحيث إنه لا يعلم حتى بغفلة وغيابه. يظنّون الناس اليوم أنّهم يعيشون في العصر الذهبي، في حين أنّهم، وفقاً لهيدغر، يعيشون في «عصر الظلمة»، أو أنه الأشدّ ظلمة من بين العصور.

لقد جلبت التكنولوجيا معها قوّة الحروب المدمّرة، وسهولة إشراف الشرطة على حياة المواطنين الشخصية، وأدت إلى دمار هائل للبيئة، وإلى مخاطر حروب نووية، وتدمير جماعيّ لكوكب الأرض. نعم، من المُمكن أن تُؤمن التكنولوجيا الراحة، ولكنها لن تجلب السكينة والسلام. ولذا، إنّ الإنسان المعاصر مضطرب، وآلامه في تزايد، ويعاني من موقفٍ مُتناقض. فهو من جهة، يشعر بأنّ العلم والتكنولوجيا وسعا استفادته من الحياة الماديّة، ولكنّه يشعر من جهةٍ أخرى، بالفراغ في داخله، ويفقدان المعنى.

لقد تحوّل التباهي بمركزيّة الإنسان، وتأليه العقل والحرية، إلى خضوع للتكنولوجيا التي أفقدت الإنسان المعنى، ودفعت به إلى العزلة، وأحكمت توجيه خياراته ورغباته، وهو يتوهّم أنه يعيش حُرّاً، وفي عالم بلا حدود.

لعلّ هذا ما قصده نيتشه عندما قال: «لقد خطونا نحو عصر الظلمة الذي لم يهرّب الآلهة فحسب»؛ بل أمات بارقة النور الإلهي في التاريخ، وفي تقدير هذا العالم، لقد حلّ «عصر انحطاط المعنويّة»، وهيمنت الموضوعات الكميّة

على الهواجس النوعية، وتحولت كل الحياة إلى معادلة اقتصادية نفعية. إن الإنسان الحالي ينزلق من أزمة إلى أزمة؛ إن العصر الحديث هو، «عصر نسيان الوجود». لقد تشكل «عصر بلا فكر تمامًا». إنه «عصر اللامعنى والعدمية».

لم يتمكن الفلاسفة والمفكرون، وحتى علماء النفس والاجتماع، من حل أزمة الإنسان المعاصر، حتى عندما قالوا بتجاوز الحداثة إلى ما بعدها، وشككوا في ما ذهب إليه من أفكار ودعوات، ومن تأليه للعقل وللحريات. لا؛ بل انتقلت الأزمة إلى تلك العلوم والفلسفات نفسها؛ بحيث بات جُل ما يُنشر طوال القرن العشرين لا يُعبر سوى عن أزمة الغرب، وأزمة الحداثة، وأزمة العلوم الإنسانية.

يبدو أن هايدغر، بدوره، لا يرى سبيلاً لخلاص الإنسانية من الأزمة التي أنتجتها الحداثة سوى «بالاستعداد لحضور الله؛ لأن الله فقط هو وحده من يستطيع أن يُخلصنا. لنوفر الاستعداد لحضوره، ففي حالة غيابه، سوف نتدهور أكثر نحو الانحطاط».

طلال عتريسي